عبرة من التاريخ كلمات تذهب بملك آل صفرة

بقلم المؤرخ الكبير

الشيخ عبد الوهاب النجار

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

ان هذا البحث ، الذى خصنا بنشره الاستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار ؛ لمن أجل البحوث القيمة ، التى توفر الاستاذ على دراستها ؛ وكرس حياته فى خدمتها .

والاستاذ النجار من كبار اساتذتنا الذين تفخر بهم مصر كل الفخر ؛ وتعتز بعلمهم وخلقهم ؛ وقلما أن يتوافرا فى الكثيرين . ونحن نقدم هذا البحث لقرائنا شاكرين للأستاذ فضله ؛ مقدرين عمله .

المحرر

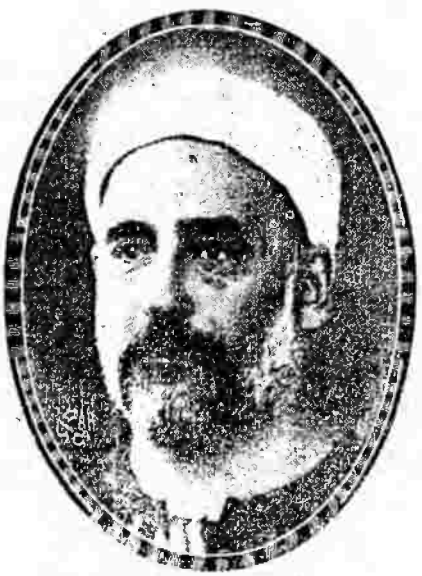

(الشيخ عبد الوهاب النجار)

يقولون فى الامثال : « ومعظم النار من مستصغر الشرر » ويقول أبو العلاء المعرى :

وان شرارة وقعت بواد
لتحرق وحدها سمرا بشرج

ومن الاساطير المنقولة عن العرب ، أن لقمان بن عاد أعطاه الله عمر أربعة أنسر ، وانه كان رجلا داهيا ، أديبا ، أريبا ، واسع الحيلة العقلية ، مشهورا بكل ذلك . وكان له أخت متزوجة من رجل أحمق ، فخشيت أن يأتى ابنها محمقا كأبيه ، فقالت لزوجة لقمان أعيرينى الليلة مضجع أخى ، ففعلت ، فاستعملت أخت لقمان منه على ولد وهو لا يعلم فجاءت بولد وسمته لقيما ، فكبر الولد وكان داهيا أريبا كلقمان ، فخشى لقمان أن يذهب لقيم بما له من الصيت والشهرة فعزم على إهلاكه .

كان لقمان ولقيم يقيمان بواد كثير السمر ، يقال له (شرج) فلما غاب لقيم على عادته فى رعى ماشيته ، عمد لقمان إلى السمر فقطعه ، وحفر فى الوادى حفرا كثيرة ، وألقى فيها حطب السمر ، وأوقد فيه النار حتى إذا خمد اللهب غطى تلك الحفر ببعض الأغصان

الصغيرة وسترها ومافيها عن العيون ، رجاء أن يجيء لقيم فيقع في احدي تلك الحفر فيهلك .

فلما عاد لقيم الي الوادى أنكر هيئته ، وقال « إن شرجا كشرج ، لولا اسيمرا » وحدس أن فى الامر سرا ، فحذر ، وكشف وجه الحيلة التى دبرها لقمان ، فتحول عن الوادى وقاطع لقمان .

و إلى هذه الاسطورة يشير المعري فى لزومياته ، فى ذم الدنيا وغدرها بقوله :

وخانت ود لقمان لقيما أباه وأوقدت سمرا بشرج

يخرج يزيد بن المهلب بن أبى صفرة من الحمام فى أيام الوليد بن عبدالملك ، وقد تضمخ بالغالية ، ويمر بيزيد بن عبدالملك وهو إلى جانب عمر بن عبدالعزيز ، وريح الغالية ساطع يفغم من يمر به ، فيكون بين اليزيدين الحوار الاتى : —

يزيد بن عبدالملك : قبح الله الدنيا ، لوددت أن مثقال غالية بألف دينار ، فلا ينالها إلا شريف .

يزيد بن المهلب : بل وددت أن الغالية كانت فى جبهة الأسد فلا ينالها إلا مثلى .

يزيد بن عبد الملك : والله لئن وليت لأقتلنك .

يزيد بن المهلب : والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حى لأضربنك بخمسين ألف سيف .

هذه الكلمات القصيرة كانت لها نتائج خطيرة ، فقد أثارت عاصفة هوجاء ذهبت بآل أبى صفرة فاجتثتهم ، وعفت على آثارهم ، وكانوا عددا جما ، فيهم الصناديد الصيد ، والانجاد الاماجيد ، من قائد محنك يريد حياته لرجاله اذا أراد القواد رجالهم لحياتهم ، وكريم يستقل الدنيا فى عطاياه ومواهبه ، وشهم هام :

إذا هم ألقي بين عينيه همه وصمم تصميم الرديني ذى الأثر

عرف التاريخ آل المهلب أعياء حرب وجلاد ، وأحلاس نزال وكفاح ، وجماع فضائل وفواضل ، فكانوا زينة دولة بنى مروان وعدتها للنوائب ، وعتادها على احداث الزمان .

ولكن هذه الكلمات القصيرة التى أوردنا ، عصفت بتلك الأطواد الراسية بين عشية وضحاها ، فصاروا مثلا للآخرين :

جمال ذي الارض كانوا فى الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

تولى المهلب بن أبى صفرة حرب الازارقة من الخوارج ، فمازال يصابرهم ويكايدهم ويفاديهم القتال ويراوحهم — وهم من لا يصطلى لهم بنار ، ولا تفل لهم شوكة ، ولا يطيق خصمهم حملاتهم ، ولا يثبت على شداتهم — إلى أن أوهن قوتهم ، وفل شوكتهم ، وأتى على آخرهم ، وأخلى منهم بلاد المسلمين ، وأراح أهل الأسلام من فتكهم ، بعد أن أقام معسكرهم

بضعا وعشرين سنة وكان ذلك سنة ٧٧ .

وحسب المهلب فخرا أن يقول الحجاج لأهل العراق « ياأهل العراق ، كلكم عبيد المهلب » والحجاج على مانعلمه ضنين كل الضن بالثناء .

المهلب والى خراسان : لما أباد المهلب بن أبي صفرة الازارقة بعد جلاد طويل ، كافأه الحجاج بأن عينه واليا على خراسان فى سنة ٧٨ ، فاستخلف المهلب عليها ابنه حبيبا ولم يذهب اليها إلا فى سنة ٧٩ . وفى ولايته هذه غزا فيما وراء النهر وغنم وصالح أهل كش ، وهلك فى عوده بمروالروز بعد أن استخلف ابنه يزيد وأوصى بنيه بطاعته ووعظهم ووصاهم (١) وقد قال نهار بن توسعة التميمى يرثيه :

ألا ذهب المعروف والعز والغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب
أقام بمروالروز رهن ضريحه ... وقد غاب عنه كل شرق ومغرب
اذا قيل : أي الناس أولى بنعمة ... على الناس ؟ قلنا : هو ولم نتهيب

يزيد بن المهلب والى خراسان : قلنا إن المهلب استخلف ابنه يزيد على خراسان ، فكتب يزيد الي الحجاج بما كان من استخلاف أبيه اياه فأقره :

منزلة يزيد : لم يكن يزيد أكبر أولاد المهلب ، ولكن آل المهلب عرفوا ليزيد فضله ، وغناءه ، ونجدته ، وكرمه ، وماهو عليه من خلال طيبة ، حتي ان أخاه الاكبر حبيبا توفى له ولد فتقدم يزيد للصلاة عليه ، فقيل له : كيف تقدم يزيد مع انك أسن منه والميت ولدك ؟ فقال إن أخى قد شرفه الناس ، وشاع فيهم له الصيت ، و رمقته العرب بأبصارها ، فكرهت أن أضع منه ما قد رفعه الله .

علم يزيد بن المهلب وكرمه : كان يزيد بن المهلب يجمع الى الشجاعة والنجدة ، العلم والكرم ، أما علمه فقد ذكر ابن الاثير فى ترجمته أنه حكى عن أنس بن مالك صاحب رسول الله ، وعن عمر بن عبد العزيز ، وأبيه المهلب ، وروى عنه عبد الرحمن ؛ وأبو عيينة بن المهلب ، وأبو اسحق السبيعى وغيرهم .

كرم يزيد بن المهلب : كان يزيد بن المهلب جوادا مفضالا ، لا يمسك يده عن طالب معروف ، ولا يرضى من العطاء بالنذر ، بل يعطي عطاء من لايخاف الفقر حتى فى أوقات ضيقه ، واشتداد الازمة عليه ، وفى أوقات عذابه .

قبض الحجاج على يزيد بن المهلب ، وأخذه بسوء العذاب ، فسأله أن يخفف عنه من

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٩٦

عذابه على أن يعطيه فى كل يوم مائة الف درهم ، فان أداها و إلا عذبه الى الليل ، فجمع يوما مائة الف درهم ليشتري بها عذابه فى يومه ، فدخل عليه الفرزدق الشاعر - على ماهو المشهور - وقال له :

أبا خالد ! بادت خراسان بعدكم وصاح ذوو الحاجات اين يزيد ؟
فلا مطر المروان بعدك مطرة ولا اخضر بالمروين بعدك عود
فما لسرير الملك بعدك بهجة ولا لجواد بعد جودك جود

فأعطاه المائة الألف ، و بلغ ذلك الحجاج فوهب له مبلغ يومه والذى بعده ، و رفع عنه العذاب فى هذين اليومين .

وذكر ابن عساكر فى تاريخه : أن يزيد بن المهلب لما فر من سجن الحجاج وقصد الشام من العراق، مر بقوم من الاعراب ، فأمر خادمه أن يستسقيهم لبنا فسقوه ، فأمر لهم بألف درهم ، فقال له الخادم: إنهم لا يعرفونك وأقل من هذا القدر يكفيهم . فقال له : ولكني أعرف نفسى ، وأمره فدفع لهم الف درهم .

وحج يزيد بن المهلب فلما قضي نسكه أعطى الحلاق الف درهم ، فدهش الرجل وقال : الآن أذهب ، فأشترى أمى فلانة ، فأمر له بألف درهم أخرى فقال الرجل : « امرأتى طالق إن حلقت رأس أحد بعدك » . فأمر له بألفين آخرين .

وكان سعيد بن عمرو بن العاص مواخيا ليزيد بن المهلب ، فلما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد كما سيجىء ، منع الناس من الدخول اليه ، فأتاه سعيد فقال له : ياأمير المؤمنين لى على يزيد خمسون الف درهم وقد حلت بيني و بينه ، فان رأيت أن تأذن لى فأقتضيه ، فأذن له فدخل عليه فسر به يزيد ، وقال له : كيف وصلت الى ؟ فأخبره سعيد ، فقال : والله لا تخرج الاوهى معك ، فامتنع سعيد ، فحلف يزيد ليقبضنها ، و وجه بالمال إلى منزل سعيد وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

فلم أر محبوسا من الناس ماجدا حبا زائرا فى السجن غير يزيد
سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه بخمسين ألفا عجلت لسعيد

ومن كرمه أن وكيلا له باع بطيخا من أملاكه بأربعين ألف درهم ، فغضب على الوكيل وقال : تركتنا بقالين ؟ أما كان فى عجائز الازد من تقسمه فيهن ؟ وقد مدحه عمر بن لجأ ، فقال:

آل المهلب قوم ان نسبتهم كانوا المكارم آباء وأجدادا
كم حاسد لهم يعيا بفضلهم وما دنا من مساعيهم ولا كادا
إن العرانين تلقاها محسدة ولا ترى للئام الناس حسادا

لوقيل للمجد : حد عنهم وخلهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواح يكون لها آل المهلب دون الناس أجسادا

ونقل ابن خلكان فى ترجمته ليزيد بن المهلب قول الأصمعى : قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاعة ، فقال رجل منهم :

والله ما ندرى اذا ما فاتنا طلب لديك من الذي نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد أحدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتنا أو لا فأرشدنا الى من نذهب

فأمر له بألف دينار ، فلما كان العام المقبل وفد عليه فأنشده :

مالى أرى أبوابهم مهجورة وكأن بابك مجمع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى بيديك فانتجعوا من الآفاق
انى رأيتك للمكارم عاشقا والمكرمات قليلة العشاق

فأمر له بعشرة آلاف دينار . قال ابن خلكان : وقد أجمع علماء التاريخ على أنه لم يكن في دولة بنى أمية أكرم من بنى المهلب ، كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة .

شجاعة يزيد وآل المهلب : قال ابن خلكان : حكى ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء أن يزيد بن المهلب وقعت عليه حية فلم يدفعها عن نفسه ، فقال له أبوه : ضيعت العقل من حيث حفظت الشجاعة ، وقال حريش بن هلال القريعى فى آل المهلب : والله ما أعلم أحدا أصون لنفسه فى الرخاء ، ولا أبذل لها فى الشدة منهم . وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبى على المهلب فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم ، فقال : آنس الله الاسلام بتلاحقكم ، أما والله لئن لم تكونوا أسباط نبوة ، إنكم لأسباط ملحمة .

وكان مخلد بن يزيد من أعلام أجوادهم ، وقد بلغت عطاياه فى سفره من جرجان إلى الشام ألف ألف درهم ، ولما مات بدابق صلى عليه عمر بن عبد العزيز وقال : اليوم مات فتى العرب .

يزيد أمير خراسان لأول مرة : لما مات المهلب استخلف ابنه يزيد على خراسان ، وكتب يزيد إلى الحجاج بوفاة أبيه وبما صنع من استخلافه ، فكتب اليه الحجاج يعزيه ، ويقره على ولاية ما كان يلى أبوه .

وقد غزا يزيد باذغيس وفتح منها قلعة نيزك ، وغنم مافيها من الأموال والذخائر . قال ابن الأثير : وكانت من أحصن القلاع وأمنعها ، وقد قال فيها كعب بن معدان الأشعرى :

(البقية على الصفحة رقم ١٠٠٢)